9. أهم الأحداث في عصر المماليك البحرية

كيف استعدت دولة المماليك البحرية لمواجهة التتار :

بعد انتهاء عصر الدولة الأيوبية وفي بداية عصر المماليك البحرية في مصر وتحديداً في عهد السلطان الصغير نور الدين علي ابن السلطان عز الدين أيبك هاجم هولاكو العراق وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب بغداد تخريباً شديداً واقترب خطر المغول من مصر ويقول السيوطي عن الخليفة العباسي المستعصم قتيل التتار (- كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة - - ثم ركن المستعصم إلي وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي61 فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار62 وناصحهم وأطمعهم في المجئ إلي العراق وأخذ بغداد - - - وصار إذا جاء خبر منهم كتمه علي الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلي أن حصل ما حصل -)63 ، ووصل التتار إلي بغداد (-وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً --، ولم يسلم إلا من اختفي في بئر أو قناة وقتل الخليفة رفساً ، قال الذهبي : ما أظنه دفن ، وقتل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأسر بعضهم وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها ولم يتم للوزير ما أراد وذاق من التتار الذل والهوان ولم تطل أيامه بعد ذلك وعملت الشعراء قصائد في مراثي بغداد وأهلها -)64

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم - - - ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم :

يا عصبة الإسلام نوحي واندبي - - - حزناً علي ما تم للمستعصم

دست الوزارة65 كان قبل زمانه - - - لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وعندما اقترب الخطر من مصر تم تولية قطز السلطنة وقال (- إني ما قصدت إلا أن نجتمع علي قتال التتار ولا يتأتي ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم -)66 ويقول السيوطي (--- وقدم الصاحب كمال الدين بن العديم إليهم رسولاً يطلب النجدة علي التتار ، فجمع قطز الأمراء والأعيان ، فحضر الشيخ عز الدين ابن عبد السلام[67] وكان المشار إليه في

---

[61] كان للمستعصم وزير اسمه مؤيد الدين العلقمي وهو شيعي رافضي وكان يحاول هدم الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية

[62] باطن التتار أي اتفق معهم علي معاونتهم ضد الخليفة سراً

[63] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 363

[64] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 368

[65] دست الوزارة = منصب الوزارة

[66] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 122

[67] كان العزّ بن عبد السلام جليلاً مهاباً حسن الصورة، منبسط الأسارير، متواضعاً في مظهره وملبسه، وكان لا يتأنّق ولا يتكلّف الحشمة ولا يستألف الوقار استألافاً،ولد في دمشق سنة 1181 م وتوفي في مصر سنة 1262 م حضر إلي مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب حيث ولاه القضاء والخطابة وقد أفتي بأن الأمراء المماليك عبيد ولا يصح لهم ما يصح للأحرار وطلب من الملك الصالح أن يتم عقد مجلس وينادي عليهم بالبيع لبيت مال المسلمين وقد تم معارضة هذا في البداية بشدة من الأمراء ومن الملك نفسه ولكنه تم بالفعل بضغط من العز بن

الكلام ، فقال الشيخ عز الدين : " إذا طرق العدو البلاد وجب علي العالم كلهم قتالهم ، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به علي جهازهم ، بشرط أن لا يبقي في بيت المال شئ وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص والآلات ويقتصر كل منكم علي فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك أنتم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا -)68 وتم جمع الأموال استعداداً لقتال العدو والذي تم بعد ذلك في معركة عين جالوت الشهيرة

معركة عين جالوت :

أرسل هولاكو رسلاً من عنده إلي مصر يحملون رسالة تحذير وتهديد (- فيا أيها الباقون أنتم بمن مضي لاحقون ، يا أيها الغافلون أنتم إليهم تساقون ، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة ، مقصودنا الانتقام وملكنا لا يرام ونزيلنا لا يضام ، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر ومن سيوفنا أين المفر - دمرنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب وجعلنا عظيمهم صغيرا وأميرهم أسيرا ، تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون -)69 وكان قطز علي علم تام أنه لن يكون هناك أي فرق بين الاستسلام أو عدم الاستسلام فهم علي أي حال سوف يقتحمون مصر ويدمرونها كما دمروا غيرها وسيقتلون الناس بلا رحمة حتي في حالة الاستسلام وبالتالي كان رد قطز بلا تردد هو قطع رؤوس رسل هولاكو (وعلق رؤوسهم علي أبواب القاهرة وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول -)70 (- وبدأ النضال العنيف بين عنصرين من أخطر وأقوي العناصر المحاربة وبين فنين من فنون الحرب الممتازة في العصور الوسطي ---- وقد تأرجح النصر مرات بين الفريقين أثناء المعركة -)71 (- وفي أول المعركة هزم المماليك وتفرقوا ولكن قطز ثبت في مكانه وألقي بخوذته إلي الأرض وصرخ بأعلى صوته " وا إسلاماه " وحمل بنفسه علي العدو فالتف المماليك حوله ثانيةً وانتصروا علي عدوهم - - - غير أن التتار لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وتجمعوا وتقدموا وأوشكوا أن ينتصروا علي المماليك ثانية فتقدم قطز وصرخ صرخته الأولي ثلاث مرات " وا إسلاماه ، يا الله انصر عبدك قطز علي التتار " فأثارت هذه الصرخة وهذا الدعاء حمية المماليك وحملوا علي التتار حتي هزموهم هزيمة شنعاء فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه علي الأرض وقبلها وصلي ركعتين شكراً لله -)72

عبد السلام عندما قرر أن يغادر مصر وكاد أن يغادرها معه كل أهل مصر فنزل الملك علي حكمه وتم بيع الأمراء ولذلك يقال عنه أنه بائع الملوك حيث تولي المماليك بعد ذلك حكم مصر

[68] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 370

[69] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 370

[70] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 122

[71] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 122 ، 123

[72] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 123

(- ويعترف المؤرخون الأوروبيون عند التأريخ لهذه المعركة أنها لم تنقذ العالم الإسلامي وحده من خطر المغول المخرب المدمر ، بل لقد أنقذت العالم المسيحي كذلك لأنه لم يكن في أوروبا المسيحية وقتذاك ملك قوي يستطيع مقاومة المغول لو أنهم انتصروا علي المماليك وتقدموا في اتجاههم الطبيعي نحو أوروبا -)[73] فالتتار منذ خروجهم من موطنهم الأصلي لم يذوقوا طعم الهزيمة أبداً وبالمناسبة الموطن الأصلي لهم هو شرق آسيا عند أطراف الصين وكانوا لا يحتاجون مدهم هم ودوابهم بأي إمدادات من أي نوع فهم يأكلون الخيول وأي شئ في أي وقت ويشكلون خطراً رهيباً علي العالم المتحضر في ذلك الوقت

<u>سيرة الظاهر بيبرس بين خطر المغول وخطر الصليبيين :</u>

كان بيبرس علي علم أن المغول سوف ينتقمون مما حدث لهم فأعد العدة لقتالهم وكان في نفس الوقت يواجه خطراً صليبياً من نوع آخر وظل بيبرس يقاوم كل منهم بكافة الوسائل (- وكان بيبرس في دمشق وقد فرغ من أمر الصليبيين وعلم أن التتار قد أعادوا الهجوم علي البيرة فتقدم نحو الشمال يقود الجيش بنفسه ثم حمل بعض السفن المفككة إلي نهر الفرات حيث أعاد تركيبها وعبر بجنوده إلي الشاطئ الشرقي حيث انتصر علي التتار الذين تقهقروا سريعاً واحتل بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها – ومنذ ذلك الحين اتجه النضال بين بيبرس وبين التتار إلي ميدان آخر إلي آسيا الصغرى -)74 ، وكانت المعركة الكبرى لبيبرس ضد جيوش المغول وحلفاءهم من سلاجقة الروم في مكان اسمه "الأبلستين" في سنة 1277 م (- وفيها انتصر بيبرس انتصاراً حاسماً عظيماً وانتقل بعد هذا النصر إلي قيسارية عاصمة الدولة ونزل بدار السلطنة وجلس علي عرش سلاجقة الروم ولهذه الوقعة نتيجة هامة أخري فقد حطمت دولة سلاجقة الروم وأتاحت الفرصة لقيام دويلات تركية أخري في أنحاء آسيا الصغري سيكون لبعضها شأن عظيم فيما بعد ، من هذه الدويلات ، دولة بني قرمان ودولة بني عثمان -)75 وبهذا كسر بيبرس شوكة التتار (- ولكن بيبرس لم يقدم علي مهاجمة الصليبيين إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل علي ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة ، كانت هذه الخطة تتلخص في عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوي الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين ، أولهما أن يمنع هذه القوي أن ترسل أو تسمح بمرور أي مدد إلي الصليبيين ولإيقاف جيوش المغول إن فكرت في التقدم لمساعدة الصليبيين -)76 واستمر بيبرس في حروبه ضد الصليبيين لمدة عشر سنوات كاملة77 وكان يتزامن أحياناً القتال مع الصليبيين مع القتال

---

[73] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 125 ، 126

[74] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 138

[75] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 138 ، 139

[76] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 149

[77] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 155

علي جبهات أخري ضد المغول وغيرهم (- وقد لقي بيبرس في حملاته ضد الصليبيين مشاق ومتاعب جمة غير أنه كان المنتصر دائماً فلم ينهزم قط في معركة من معاركهم ولم يمتنع عليه حصن من حصونهم -)78 وكانت أهم إنجازات بيبرس في قتاله ضد الصليبيين تحرير إمارة صليبية كبري وهي إمارة إنطاكية ، (- وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوي في نفوس الشعب العربي في مصر والشام فأعجب ببطولة بيبرس وأكبره وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته وألف أديب مصري مجهول "سيرة الظاهر بيبرس" فكانت ملحمة للبطولة وظلت قروناً يتغنى بها الشعراء والقصاص في المقاهي ومجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطولة في نفوس الشعب -)79

<u>السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون وجلاء آخر جندي صليبي من الشام :</u>

استطاع الصليبيين تكوين أربعة إمارات صليبية في الشام وهي إمارة الرها وإمارة بيت المقدس وإمارة إنطاكية والإمارة الرابعة طرابلس ثم بدأت معارك التحرير ويقول د جمال الدين الشيال : (- تهاوت الإمارات الصليبية الثلاث من قبل علي أيدي أبطال الجهاد المسلمين ، فسقطت إمارة الرها علي يد عماد الدين زنكي ، وسقطت إمارة بيت المقدس علي يد صلاح الدين الأيوبي وسقطت إمارة إنطاكية علي يد الظاهر بيبرس ولم تعد إلا الإمارة الرابعة وهي إمارة طرابلس التي كان يحكمها أمراء النورمان ، وبقيت بعض فلول الصليبيين في مدن أخري متناثرة وهي بقايا مملكة بيت المقدس وكان مقرها مدينة عكا وحصن المرقب ويحكمه فرسان الاسبتارية وطرسوس ويحكمها فرسان الداوية -)80 ، وقد استطاع السلطان قلاوون ومن بعده ابنه الأشرف خليل هزيمة الصليبيين وطردهم من الشام بالكامل لتنتهي بذلك هذه الصفحة من تاريخهم في الشام وقد استطاع قلاوون تحرير طرابلس (- وخرج علي رأس جيش ضخم حتي وصل إلي طرابلس فحاصرها تسعة وثلاثين يوماً ، وبعد قتال عنيف سقطت طرابلس واستولي عليها قلاوون في أبريل سنة 1289م -)81، وكانت عكا آخر المعاقل الصليبية في الشام وأخذ قلاوون يعد العدة لتحريرها ولكنه مات قبل أن يتم ذلك فتولي الملك الأشرف خليل بن قلاوون المسئولية ودعا للجهاد ضد الصليبيين في جميع البلاد الإسلامية (- وفي القاهرة أقام السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون احتفالاً دينياً في القبة المنصورية دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان وحضرته طوائف الشعب ، وضج المجتمعون بالدعاء إلي الله أن يكتب النصر للسلطان ثم خرج خليل بجيشه من القاهرة واجتمعت هذه الجحافل82 من كل مكان عند أبواب عكا في ربيع سنة 1291 م - - - واشتد الحصار ودام ثلاثة وأربعين يوماً - - - وسقطت عكا في أيدي العرب بعد أن لبثت في أيدي

---

[78] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 156

[79] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 158

[80] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 167

[81] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 168

[82] خرج كل أمير من أمراء الشام بقوة كبيرة ليقابل جيش السلطان عند عكا وجدير بالذكر أن هذه المعركة اشترك فيها المجاهدين المسلمين وليس المماليك فقط

الصليبيين مائة عام كاملة وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية القليلة الباقية كما تتساقط أوراق الشجر - - - وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي وطرد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير بدأه عماد الدين زنكي وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير : نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وبيبرس وقلاوون ثم كان التطهير علي يد الأشرف خليل بن قلاوون -)83

[83] **تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 169**